

بين طغيان الطاعة وطغيان المعصية

منشور غاية في الأهمية رجاءً النشر

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

هذه الآيةُ الكريمةُ آيةٌ جامعةٌ لِأُسُسِ المنهجِ الإسلاميِّ، وبِقَدْرِ تحقيقِ العبدِ لمرادِ الآيةِ الكريمةِ يكونُ مُحققا للإسلامِ حقا.

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ محمدا صلى الله عليه وسلم بالاستقامة {فاستقم}، ثُم بيّن له حقيقتَها وحدَّها وضابِطَها {كما أُمِرتَ} فلا تحقيقَ للاستقامةِ التامةِ إلا بالأقامةِ على أمرِ اللهِ دون إفراطٍ أو تفريطٍ، ثُم عَطف على رسوله صلى الله عليه وسلم جماعةَ المسلمين {ومن تاب معك} فهم مخاطبون أيضا بهذا الأمر، ووجّه الخطابَ أولا للرسولِ صلى الله عليه وسلم؛ لِعِظَمِ هذا الأمرِ وضخامتِه، ثُم نهاهم جميعا عن الطغيانِ {ولا تطغوا} وما الطغيانُ إلا خروجٌ عن الاستقامةِ وولوجٌ في الانحرافِ والزيغِ والاعوجاجِ! ثم خَتم الآيةَ بما يُشعِرُ بالوعدِ والوعيدِ {إنه بما تعملون بصير} فيُثيبُ مَن استقام، ويُعاقبُ من انحرف وزاغ.

إذا تبيّن أن كل مخالَفة يقع فيها العبد تخدش في استقامته، وأن هذا الأمر يتفاوت بتفاوُت درجة المخالَفة، فَلْنَعْلَمْ أنّ المخالَفة هنا نوعان:

النوع الأول: مخالفةٌ سببُها تقصيرُ العبدِ وتفريطُه في الأمر والنهي، بفعلِ ما نُهيَ عنه أو تركِ ما أُمِرَ به، بمعنى أن العبد يعلم أنه عاص بذلك، كمن يترك الصلاة أو الصوم أو الزكاة، أو يأتي بالفاحشة أو يسرق أو يشرب الخمر أو يكذب أو يغتاب أو يظلم



النوع الثاني: مخالفةٌ سببُها إفراطٌ من العبد في الأمر والنهي، بفعل ما لم يؤمر به وترك ما لم يُنهَ عنه على سبيل القربة، بمعنى أن العبدَ لا يعلم أنه عاص بذلك، بل يحسب أنه مطيعٌ لله متقربٌ له بما يأتي به مما هو في حقيقته بدعة لا قُربة، كمن يتقرب إلى الله -بزعمه- بالوقوف في الشمس طوال اليوم، أو بالرقص أو الاهتزاز أو القفز أو اللطم عند قراءة القرآن الكريم أو ذكر الله تقدست أسماؤه وتعالت صفاته، أو بترك أكل اللحم، أو بترك الزواج.

إذا اتضح لنا هذا تمام الوضوح، فإننا سندرك صدق ما قاله سلفنا الصالحون -رضي الله عنهم-: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية» و «صاحب المعصية تُرجَى توبتُه؛ لأنه يشعر بتقصيره وبعده عن الله بذنوبه، وصاحب البدعة لا ترجى له توبة؛

لأنه يرى بدعته دينا وقُربة، فكيف يتوب مما يعتقده دينا؟!» إلى غير ذلك مما ورد في ذم البدعة.
وأيضا فإن صاحب المعصية لا ينسب ما يأتي به من الذنوب والمعاصي للدين، ولا يضيفه إلى الله ورسوله أبدا، بخلاف صاحب البدعة فإنه ينسب جميع ما يأتي به من البدع والمحدثات للدين، ويضيفه لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا مما يدلك على أن البدعة في الأصل أضر من المعصية.
وأيضا فإن المتأمل في النصوص الواردة في ذم الذنوب والنصوص الواردة في ذم البدع يجد أن الوارد في ذم البدع أشد وأعظم وأغلظ، وأن الشرع يفتح بابا واسعا للتوبة من الذنوب والمعاصي؛ ربما غفر لبغيّ زانية بشربة ماء تسقيها كلبا عطشان، وربما غفر لعاص بإماطة أذى عن الطريق، ولآخر بالتصدق برغيف ... لكون العاصي غالبا منكسرا بسبب هذه الذنوب، بخلاف المبتدع الذي ابتدع وشرع ما لم يأذن به الله، فهو مطمئن إلى بدعته.
ودونك مثالا لرجلين: أحدهما مبتدع، والثاني: عاص 👇👇



ليس منا ببعيد ما ورد في الصحيح من حديث هذا الرجل المصلي العابد الذي علامة السجود بين عينيه، وقد جاء يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: "اتق الله يا محمد واعدل فإنك لم تعدل".



فهذا عابد طغى في الطاعة، وخرج عن حد الاستقامة، حتى زينت له عبادته أنه يعرف تقوى وعدلا لم يحققهما إمام العادلين وسيد المتقين صلى الله عليه وسلم .
وهو أو غيره الذي أبلى بلاء حسنا في إحدى المعارك، فاستحلفه النبي صلى الله عليه وسلم وسلم أيرى في المعركة من هو خير منه؟ فقال: لا، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ولا أنا، قال: نعم!!



ظن أن العبرة بكثرة أعمال الجوارح، وجهل أن السبق إنما يكون بالقلوب، فما سبق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بكثرة صلاة وصيام، بل بشيء وقر في قلبه.
و معلوم أن ركعتين من النبي صلى الله عليه وسلم خير من جميع ركعات من سواه

و معلوم أن ركعتين من النبي صلى الله عليه وسلم خير من جميع ركعات من سواه صلوات الله وسلامه عليه؛ فإن الذي يقوم بقلبه الشريف لا يدانيه أحد من الخلق أجمعين.
وقد أخبر المعصومُ صلى الله عليه وسلم أنه يَخرج من ضئضئ -أي أصل- هذا الرجل أقوام يحقر الواحد من الصحابة الكبار رضي الله عنهم صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم [ومعلوم أن هَدي الصحابة أصح وأكمل] فيحملهم
طغيانُ طاعتهم الناشئُ عن سوء فهمهم إلى تكفير الصحابة وقتالهم وقتلهم!!
لذلك جاء الوعيد الشديد من نبي الرحمة في حق هؤلاء المبتدعة الذين طغوا في الأوامر والنواهي « يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، شر قتلى تحت أديم السماء، لإن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، كلاب أهل النار"..
كما أنه ليس منا ببعيد ما ورد في الصحيح السّكّير الذي أُتِي به كثيرا للنبي صلى الله من حديث هذا الرجل العاصي الشارب للخمر عليه وسلم ليقيم عليه عقوبة شرب

الخمر، لما قال أحد الصحابة: "فلان لعنه الله!
ما أكثر ما يؤتى به في الخمر"!!
قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنه؛ إنه يحب الله ورسوله» فنهى عن لعنه، وشهد له بمحبة الله ورسوله مع ما يأتي به من المعاصي والكبائر، نظرا لانكساره بين يدي الله، وإقراره بأنه متدنس بالذنوب، وسعيه الصادق في تطهير نفسه أولا فأولا.
فقارن بين حال من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له: «طهرني» وحال من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له: «اعدل فإنك لم تعدل."

وقارن بين غضبه صلى الله عليه وسلم حين سمع بالأربعة -كما في الصحيح- الذين أرادوا أن يزيدوا على أصل ما شُرِع، وقد تقالّوا عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم أو كأنهم فعلوا!!
وهي بداية شر عظيم وخطر مستطير، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أقوم ولا أرقد، وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء، وقال الرابع: وأنا لا آكل اللحم.

غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا، وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، أما أنا -صلى الله عليه وسلم- فأصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» أو كما قال صلوات ربي وسلامه عليه.
قارن بين حاله هنا وحاله مع الشاب الذي أراد الزنا وجاء يستأذنه في ذلك، وغير ذلك من المواقف المشابهة.
وربما كان للحديث بقية بإذن الله تعالى.
{وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}





الشيخ حسام جاد

درس في كلية الشريعة الإسلامية ـ جامعة الأزهر

مع تحيات

مطويات موسوعة اعرف دينك

للعلوم الشرعية

